كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

إعجاز البيان في بلاغة التعبير عن فرائد أبي بكر الصديق في القرآن بين الاطراد والتنوع

إعداد

د/ سهير بنت عيسى مرعي القحطاني

أستاذ البلاغة والنقد المشارك
بكلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد

(العدد الأربعون)
(إصدار أكتوبر - الجزء الثاني)
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

إعجاز البيان في بلاغة التعبير عن فرائد أبي بكر الصديق في القرآن بين الاطراد والتنوع

سهير بنت عيسى مرعي القحطاني

قسم اللغة العربية بكلية العلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد، أبها، السعودية.

البريد الالكتروني: soessa@kku.edu.sa

الملخص:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم البشرية نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فقد عنيت الدراسة الموسومة بـ:" إعجاز البيان في بلاغة التعبير عن فرائد أبي بكر الصديق في القرآن بين الاطراد والتنوع " بدراسة المواضع التي وردت في الذكر الحكيم واتفق المفسرون وأهل العلم أنها نزلت في أبي بكر الصديق – رضي الله عنه– خاصة، بحيث كانت فرائد في معاني تفرد بها – من دون بقية الصحابة – ووردت بنظم معجز يبيّن سموَّ نفسه، وعلوَّ منزلته وتفرّده بنصرة للإسلام لم يأت بها أحد مثله، واتَّبعت الدراسة منهج التحليل البياني، فأتت في مبحثين أولهما: خصائص البيان عن الصديق في سياق تزكية النفس وسموها، وآخرهما: خصائص البيان عن الصديق في سياق النفرة للنصرة، يتقدمهما مقدمة، وتمهيد في مطلبين أولهما: العلاقة بين تفرّدِ الصديق في سماته وتفرّدِ التعبير عنه، وآخرهما: التناسب بين آيات الصديق بين ترتيب النزول وترتيب المصحف. ويعقبهما خاتمة ضمت نتائج للبحث التي من أهمها: اطراد خصوصية التقابل العام في كل المواضع التي وردت في تفرّده بين سموِّ نفسه وهبوطها عند غيره تارة، وبين نصرته للإسلام وخذلانه عند غيره تارة أخرى؛ اطراد بناء الصفات على حذف الموصوف، وهذا أدلُّ على علوِّ منزلته وتفرده، واطراد أساليب العلم بالمخاطب سواء في التعريف به بالموصولية أو بأل الدالة على العهد، وغيرها كثير مما هو مثبت في البحث .

الكلمات المفتاحية: **أبو بكر الصديق، تفرُّد، تناسب، اطراد، تنوع**

marvel of the statement in the rhetoric of expression about Abu-Bakar Alsedeq's singularity in the Munificent Qur'an between regularity and diversity.

Suhair bint Issa Mari Al-Qahtani

Department of Arabic Language, College of Humanities, King Khalid University, Abha, Saudi Arabia.

Email: soessa@kku.edu.sa

Abstract

Praise be to Allah, the Lord of the worlds, and may the blessings and peace of Allah be upon the most honoured of messengers, our master Muhammad (peace be upon Him) and all his family and companions. The purpose of this study is to present the marvel of the statement in the rhetoric of expression about Abu-Bakar Alsedeq's singularity in the Munificent Qur'an between regularity and diversity. This study aims at studying the verses mentioned, and the Islamic commentators and scholars agreed that it was revealed particularly by Abu-Bakar (May Allah be pleased with Him). This singularity was distinguished Him from the rest of the companions (May Allah be pleased with them). It was mentioned in a marvellous system that interprets his notability, loftiness, and distinction in supporting Islam, where no one had previously brought these privileges. This

study is followed by data analysis methodology and broken down into two areas of interest: the first is the attributes of the statement about Alsedeq in the context of self-purification and its sublimity. The second is the attributes of the statement about Alsedeq in the context of the aversion to victory. This study is prefaced by two sections: the first, is the relationship between Alsedeq's district humanistic and spiritual characteristics. The second, is the proportionality between the verses that came down to Al-sedeq, and the difference between the order of verse descent, and the arranging of the Munificent Qur'an. This study is, then, followed by a conclusion that includes the findings of the research. The most important of which is the increasing of the general of the speech order in all verses mentioned in his singularity between his sublimity and relegation to others at times, and between his support of Islam and his disappointment with others at other times, in addition to the steady establishment of qualities on the cancelation of the described. This part proves his loftiness and singularity as well as the increase in the manner of knowledge of the addressee whether in the definition of accessibility or (The) as the meaning of the covenant. There are many significant findings, as well, that are proven in the research.

Keywords: **Abu-Bakar Al-Sedeq, Singularity, Proportionality, Steady, Diversity.**

المـــقدمة

الحمدالله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم البشرية نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فقد عُنيت الدراسة الموسومة بـ:" إعجاز البيان في بلاغة التعبير عن فرائد أبي بكر الصديق في القرآن بين الاطراد والتنوع " بدراسة المواضع التي وردت في الذكر الحكيم واتفق المفسرون وأهل العلم أنَّها نزلت في أبي بكر الصدِّيق – رضي الله عنه– خاصة، بحيث كانت فرائد في النظم تفرّد بها من دون بقية الصحابة، وردت بنظم معجز يبين سموَّ نفسه وعلوَّ منزلته وتفرّده بنصرة للإسلام لم يأت بها أحد مثله.

- أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في كونها دراسة جديدة في إعجاز القرآن في الإبانة عن الصحابة، وتربط بين سمات الشخصية ومدى تعلق النظم القرآني بها، وهذا كان سببًا لاختيارها.

- وقد هدفت الدراسة إلى هدفين رئيسين هما:

أ/ بيان إعجاز النظم الحكيم من جهة التناسب في بيان هذه الفرائد لأبي بكر الصدِّيق – رضي الله عنه–

ب/ الكشف عن تفرد الصدِّيق– رضي الله عنه– بمعان في القرآن لم تأت لغيره، وكيف تفرد تعبير النظم الحكيم عنها بتراكيب وأساليب لم ترد لغيره –رضي الله عنه–

وكان من أهم تساؤلات الدراسة:

–هل وجد ربط في القرآن بين سمات أبي بكر الشخصية وأساليب نظم القرآن؟
–كيف ربط النظم الحكيم بين سمت شخصية الصديق والتعبير عنها؟
–كيف تناسبت مواضع تفرِّد الصدِّيق فيما بينها سياقا ومقالا؟

-ما أساليب التفرّد التي اختص بها الصدّيق في نظم القران الكريم؟

-ما المعاني التي تفرّد بها الصدّيق في نظم القرآن الكريم؟

<u>منهج الدراسة:</u> منهج التحليل البياني الذي اعتمد على استقراء جميع المواضع التي تفرد بها سيدنا أبوبكر الصدّيق في النظم الحكيم، وتحليل إعجاز بيانها بدءا بالكلمة وانتهاء بالجمل والتراكيب من خلال العناية بوجه التناسب بينها، مراعية السياق المقالي والحالي لكل موضع.

وأتت الدراسة في مبحثين يتقدمهما مقدمة، وتمهيد ويعقبها خاتمة وفهرس موضوعات على النحو الآتي:

- **المقدمة: حوت أهمية الدراسة وسبب اختيارها وأهدافها، وتساؤلاتها، ومنهجها، وخطتها.**
- **التمهيد في مطلبين:**
- **المطلب الأول: العلاقة بين تفرّدِ الصدّيق في سماته وتفرد التعبير عنه.**
- **المطلب الثاني: التناسب في آيات الصدّيق بين ترتيب النزول والمصحف.**
- **المبحث الأول: خصائص البيان عن الصدّيق في سياق تزكية النفس وسموها.**
- **المبحث الثاني: خصائص البيان عن الصدّيق في سياق النفرة للنصرة.**
- **الخاتمة وفهرس المصادر والمراجع والموضوعات.**

التـــــمهيد

المطلب الأول: العلاقة بين تفرد الصديق في سماته وتفرد التعبير عنه:

السمت الأول: علوّ الرتبة في الفضل، كونه بإجماع أهل العلم في المرتبة التالية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الفضل [1]، ومن ثم يأتي تاليا له ومرافقا في الخطاب، ويتشابهان في النظم سواء في وعدهما برضاهما عن عطاء الله لهما كما في آيتي الليل والضحى:" وَلَسَوْفَ يَرْضَى "، ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ (الضحى: ٥) أو في الإخبار عن علوّ رتبتهما في الإيمان كما في آية سورة الزمر: ۝ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٣٥ ۝ (الزمر:٣٣-٣٥) أو في سيرهما إلى الهجرة وتعرضهما لمخاطرها كما في آية سورة التوبة: ۝ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (التوبة: ٤٠)

السمت الثاني: علوّ الرتبة في الإيمان، فسبب فضله على غيره ما وقر في قلبه من إيمان، قال أحد كبار التابعين بكر بن عبد الله المزني، في تفسير هذه المكانة: "ما فَضَلَ أبو بكر النَّاسَ بكثرة صلاةٍ ولا بكثرة صيامٍ، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه"[2]

---

(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضى الله عنهم، وفي رواية مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ، ثُمَّ مَنْ قَالَ، ثُمَّ عُمَرُ.. وغير ذلك من روايات صحيح البخاري في تقدم مناقب الصديق، ينظر في: فتح الباري صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، ط١، دار الشعب – القاهرة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧: ح ٣٦٥٥/ ٥: ج٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ١٤١٢: ٤ / ١٧٤.

كما في آيات سورة الليل: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ (الليل:١٧-١٩) حيث ترقى النظم في بيان سماته بوصفه بالأتقى، ثم بيّن سموه وزكاة نفسه في إيتاء ماله إيتاء متجددا لغاية سامية، فليس ذلك لطلب مصلحة أولمجاملة كما عليه كثير من الناس، بل لابتغاء وجه ربه الأعلى، وهذا هو الإحسان وتمام الإيمان الذي فاق به جميع الأمة، كما أنه – رضي الله عنه- لم يكن فقيرا كغيره من الصحابة حينها ولم يتعرض لعذاب مباشر من أهل الكفر وهذا علوّ لشأنه وإكرام له.

السمت الثالث: المسارعة إلى التصديق لكل ما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم- ومن ثم لقبه نبي الأمة بالصديق، فحين اهتز جبل أحد قال له: " اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"[1] ولذا تفرَّد -رضي الله عنه- بهذا في الإخبار عنه في موضع سورة الزمر: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر:٣٣) سواء في إيثار التضعيف "صدَّق" أو في عطفه على منبع الصدق وأساسه وهو النبي الأكرم أو في إيثار الموصولية والقصر للإشارة إلى تفردهما بذلك من بين البشرية.

السمت الرابع: ملازمته للنبي – صلى الله عليه وسلم – ومن ثم أضاف إليه صاحبه: "إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

(١) صحيح البخاري:كتاب بدء الوحي: ٣٦٧٥ / ٥/ ١١.

حَكِيمٌ"(التوبة:٤٠) بما تحمله الصحبة من دلالة الملازمة والنفع لصاحبه[١] وهذا أدلّ على علوّ منزلته وتفرده .

السمت الخامس: كرمه وجوده، يتجلى ذلك في إنفاقه ماله كله على الدين، ولتفرده في المنزلة قبله النبي – صلى الله عليه وسلم– منه وحده ولم يقبل من غيره [٢]؛ لسموّ نفسه من الالتفات إليه بعد الإنفاق، ومن ثم نبه الإخبار عنه في موضع سورة الليل على شمول إنفاقه ماله:" الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" (الليل:١٨)

المطلب الآخر: التناسب بين آيات الصديق بين ترتيب النزول والمصحف:

ورد تفرّد اختصاص سيدنا أبي بكر –رضي الله عنه – في القرآن في خمسة مواضع، وفي هذه المواضع فرائد معنوية لم تأت إلا معه، ترتبت عليها فرائد أسلوبية اختص بها في تعبير النظم الحكيم، ويمكن إجمال هذه الفرائد المعنوية في سياقات كلية متناسبة في المواضع الخمسة، حيث يجمعها سياقان كليان:

الأول: التفرّد؛ فكل هذه المعاني والأساليب لم تكن إلا لأبي بكر الصدّيق ــ رضي الله عنه ـ في مرتبة هي أعلى المراتب الإنسانية التي تلي مرتبته صلى الله عليه وسلم.

الثاني: التقابل بالتضاد في السياق الكلي والجزئي.

والمواضع الخمسة بترتيب النزول هي:

(١) الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، د. ط، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة:٣٠٨

(٢) يقول الخَطَّابي: "وإنما لَم يُنْكِر على أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – خروجَه من ماله أجْمع، لِمَا عَلِمَ من صحة نيَّته، وقوَّة يقينه، ولَم يَخَف عليه الفتنة" ينظر معالم السنن، شرح سنن أبي داوود: أحمد بن محمد الخطابي البستي، ط٢، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م: ٢/ ٧٨.

الموضع الأول في سورة الليل:" وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢١ "(الليل:١٧-٢١)، والموضع الثاني في سورة الزمر: "أَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٣٥ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣٦ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ٣٧ " (الزمر:٣٢-٣٧)، والموضع الثالث كان في سورة التوبة:" إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (التوبة:٤٠)، الموضع الرابع في سورة النور: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ" رَحِيمٌ ٢٢ " والموضع الخامس في سورة الفتح:" أَ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيد تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيما ١٦ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَج وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَج وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَج وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰت تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيما " (الفتح:١٦-١٧) وهو آخر المواضع نزولا وآخر المواضع حدوثا ؛ لأنَّ فيه تعيين لخلافته رضي الله عنه(١).

(١) كان أبو بكر يبتاع الضَّعَفَةَ من العبيد فيعتقهم – في أول الإسلام –، فقال له أبوه: يا بنيَّ لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك. قال: ما مَنْعَ ظَهْرِي أريدُ. فَنَزَلت فِيهِ: {وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى - الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل: ١٧-١٨] إلى آخر السورة وهي مكية، ونزل موضع الزمر في تصديق أبي بكر، في حين نزلت سورة التوبة في غزوة تبوك، ونزلت سورة الفتح كلها بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، ونزل موضع سورة النور في حادثة الأفك: ينظر: أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ط١، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٤٠٣: ٣٠١، ٢٤٧، ٢٥٥، ١٦٥، ٢٤١.

وبترتيب المصحف الموضع الأول هو موضع سورة التوبة، والثاني موضع سورة النور، والثالث موضع سورة الزمر، والرابع موضع سورة الفتح، والخامس الأخير موضع سورة الليل.

ويتجلى التناسب بينها جليًّا بوجهيّ النظر إلى ترتيب النزول أو ترتيب المصحف في سياق التفرد على النحو الآتي:

أولا: التناسب بين المواضع الخمسة في ترتيب النزول:

عند النظر إلى تناسب المواضع الخمسة من حيث ترتيب النزول نجدها مبنية على علاقة السبب والتسبب، ويتجلى ذلك في أنَّ تزكية نفسه وتطهير داخله كانت سببا رئيسا في الثبات في هذه المواقف، حيث كانت عند سيدنا أبي بكر – رضي الله عنه – في الصورة المثلى العليا، والدرجة العالية السامية التي تلي مرتبة النبوة مباشرة، فكان ثباته – رضي الله عنه– في هذه المواقف ثباتا تاليا لمرتبة النبوة معه –صلى الله عليه وسلم – ومن ثم تفرَّد بأن يكون معه بعد ذلك: فهو " وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ " هذا تفرد وهو الذي ثبت معه في حياته "ثَانِيَ اثْنَيْنِ " وبعد مماته "قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْس شَدِيدٍ "(الفتح:١٦) وهذا تفرد، " و انضباط النفس عند حديث الإفك هذا تفرّد، والسبب الرئيس في كل التفرد في هذه المواضع كان أول موضع نزولا فيها: "وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى "(الليل:١٧) وكيف أنه كان الأتقى من بين الناس من بعد النبوة، ولو وازنّا ذلك مع قوله صلى الله عليه وسلم:" أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية "[1] فالرسول – صلى الله عليه وسلم – أتقى الناس مع الله، ثم أعلى مرتبة في الناس بعده سيدنا أبو بكر الذي وصف بالأتقى، ولو وزانًّا آخر آية في سورة الليل" وَلَسَوْفَ يَرْضَى "

(١) – صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ط١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٩٦٠م، ح١١٠٨/ ج٢/ ٧٧٢.

في شأن سيدنا أبي بكر – رضي الله عنه – بما بعدها في سورة الضحى مباشرةً ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (الضحى:٥) في شأن نبينا الكريم – صلى الله عليه وسلم – لرأينا هذه المرتبة، والسبب الرئيس فيها تزكية النفس .

ثانيا: التناسب بين المواضع الخمسة في ترتيب المصحف في سياق التفرد:

لو راعينا ترتيب المصحف في بيان وجه التناسب بين المواضع الخمسة، لراعينا وجه الترقي بين الأفعال والصفات وكان أول الآيات ورودا في سيدنا أبي بكر– رضي الله عنه– على ترتيب المصحف في سورة التوبة، والثاني في سورة النور، والثالث في سورة الزمر، والرابع في سورة الفتح، والخامس في سورة الليل.

ويلاحظ فيها جوانب ثلاثة:

١/ الترقي من البدء إلى الختام: أي من الفعل إلى جزاء الفعل: ترقي في أفعاله من موقفه مع الرسول– صلى الله عليه وسلم – في الهجرة في موضع سورة التوبة، وموقفه في حديث الإفك في موضع سورة النور، ثم موقفه في تصديقه للنبي في موضع سورة الزمر، ثم توليه الخلافة في موضع سورة الفتح، إلى الانتهاء بالرضى عنه في موضع سورة الليل ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ فكان " وَلَسَوْفَ يَرْضَى "نهاية أمره – رضي الله عنه– وختامها وأعلى شي فيها، وهو ما يتعلق بالجزاء على كل ما قدَّم للرسول – صلى الله عليه وسلم– وللإسلام، ويلاحظ هنا أن الجزاء ممتد غير مقيد بنوع من الرضى ولا بنوع من الجزاء، وهذا فيه انفتاح يدل على الدوام والثبات للرضى والزيادة فيه زيادة مطردة تتناسب مع حاله –رضي الله عنه – بمعنى الترقي في أحداث حياته إلى الانتهاء بالرضى عنه في الدنيا والآخرة رضى ممتدا .

٢/ الترقي فيما قدمه من أفعال أو أقوال أو أحداث: فهناك أمران ثبت فيهما كانا نصره للإسلام الأول: في أول آية في المصحف في هجرته –صلى الله عليه

وسلم-: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ (التوبة:٤٠) فالهجرة كانت أساس قيام الدولة الإسلامية ولم يكن معه إلا أبو بكر – رضي الله عنه – والثاني: في آخر سورة الفتح موقفه في حروب الرده: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيد تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (الفتح:١٦)؛ لأنَّه وحده من وقف لقتالهم فلم يقفه إلا هو ولو خرج لوحده لخرج، حتى إنَّ عمر – رضي الله عنه– راجعه في ذلك[1]، وقد أجمع العلماء أنَّ هذه الآية في أول خلافته؛ لأنَّه بعد نزولها لم يأمر الرسول بقتال للعرب أبدا، والآية لم تقم إلا على القتال أو الإسلام ولم يكن فيها جزية وكان أول من دعا لقتال المشركين بعد رسول الله هو أبو بكر الصديق ولو تردد أبو بكر – رضي الله عنه– في هذه الدعوة لمحي الإسلام؛ فالقيام الثاني للدولة الإسلامية كان في حروب الردة التي قام بها أبو بكر الصديق – رضي الله عنه–

٣/ الترقي في التفرّد في الصفات والأحوال التي لا تكون إلا منه: " ثَانِيَ اثْنَيْن"(التوبة؛٤٠) لم تأت إلا معه وهذه أولها، خطاب المفرد في خطاب الجمع في غير النبي – صلى الله عليه وسلم– لم يأت الامعه ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ (النور:٢٢) في مقام التعظيم ورفعة الشأن؛ فالخطاب جماعة وهو واحد ولم تأت إلا معه، المعية المطلقة في قبول أخباره – صلى الله عليه وسلم– ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٢) ولذلك جمعهم على سبيل الحصر وكأنهما وحدهما في العالم كلّه هم المتقون كما كانوا في الغار، وكذلك الثبات وحده في حروب الردة وهذا التفرد هو الذي جعله " الْأَتْقَى" وأفعل التفضيل هنا على أصل وضعه.

(١) ينظر: العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي، ط٢ تحقيق محب الدين الخطيب – ومحمود مهدي الاستانبولي، دار الجيل بيروت – لبنان ،. ١٩٨٧م: ٦٤/١

كما أنَّه يتجلى التناسب بين المواضع في السياق الكلي المبني على المقابلة الذي يلاحظ فيه أنَّه مطرد اطرادا كليا في المواضع الخمسة؛ ففي الموضع الأول في سورة التوبة كان سياقه الرئيس يتعلق بالمقابلة بين موقف أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – في هذه النصرة للنبي– صلى الله عليه وسلم– وهو وحيد في موقف خطر وبين تخلي البعض عنه في مواقف الشدة في غزوة العسرة ؛ لأنَّ السياق السابق متعلق بهذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (التوبة: ٣٩) فهناك تثاقل الأرض وتباطؤ عن الخروج مع الرسول–صلى الله عليه وسلم – مع من معه من المهاجرين والأنصار، وهنا مع الصديق نفور إلى الذهاب معه ونصرته – صلى الله عليه وسلم– وهو وحده وهذا البيان على وجه التقابل بين الموقفين مقصود به بيان رفعة و تفرد موقفه رضي الله عنه.

وكذلك في موضع سورة الزمر ورد السياق السابق في تكذيب الرسول– صلى الله عليه وسلم–: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنۡ كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ ﴾ (الزمر:٣٢) ثم ورد قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَۖ ﴾ (الزمر:٣٢) فهناك كذّب بالصدق، وأبو بكر الصديق صدق به هنا، وهناك "فَمَنْ أَظْلَمُ "، وهنا "أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ".

وفي سورة النور أتى التقابل على وجه التباين جليًّا في هذا التقول على السيدة الطاهرة المطهرة، مع وضوح برءاتها وعلمهم في داخلهم ببراءتها ومع ذلك يتلقونه بألسنتهم، وهنا مع أبي بكر الصديق –رضي الله عنه –تصدق وعطف ورحمة على من تقوَّل في عرضه فهذا سموّ للنفس، و في سورة الليل: تقابل ما بين الأشقى على وجه الإطلاق والأتقى على وجه الإطلاق، بل إنَّ سورة الليل كلها مبنية على اشتجار التقابل بين أحوال مختلفة: ﴿ وَٱللَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰٓ ﴾ (الليل:١-٣)

وفي سورة الفتح في بداية أمره في توليه الخلافة في قتال هؤلاء المتخلفين عن الجهاد المرتدين الظانين بالله ظن السوء وبين هذا الثبات في دعوته هو لقتال قوم أولي بأس شديد، إذن التقابل هنا مطرد والتقابل ينتج معنى دلاليا واحدا وهو سموه –رضي الله عنه– على كل الناس ما دون مرتبة النبوة سموا في الأفعال تقابل الانحدار في الأخلاق والأفعال الموجودة عند هؤلاء.

ويظهر التقابل في السياق الجزئي في كل المواضع الخمسة: ففي سورة التوبة في مخالفة الظاهر للباطن لدى المنافقين والتضاد في الخروج للنصرة، وهذا السياق نجده متشابها مع موضع الفتح ونلحظ هذا التشابه في الموقف وفي الحادثة حيث كان موقف الصديق – رضي الله عنه– بعد توليه سببا في تقويم الدولة الإسلامية كما كان موقفه في نصرة الرسول– صلى الله عليه وسلم – والخروج معه سببًا في تقويم الدولة الاسلامية.

أما السياق في سورة الزمر وسورة الليل فهو سياق سموّ النفس وتزكيتها، عبر التحلي بوسائل السموِّ والتزكية تمثل أولها في تصديق النبي – صلى الله عليه وسلم – و ما جاء به من الحق، وفي خشية الله وتقواه ثم التطوع بهذا المال والتنزّه عن أموال الدنيا – ومن ينظر في سيرته – رضي الله عنه– يجد عجبا كيف أنَّه في حياته لم يأخذ إلا قوته من بيت مال المسلمين فلمّا كان حين وقت موته ردَّ كل ما أخذه وكأنه يحقق هذه الآية تحقيقا كاملا: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ فكان خدمة للأمة أراد أن تكون لوجه الله –عز وجلَّ وكأنَّه المقابل لليل فهو النهار، يقابلها سياق سورة النور في التخلي عن صفات التي لا تليق بسموّ نفسه وتزكيتها من الانقطاع عن الإنفاق على من أساء له في حادثة الإفك.

المبحث الأول:
خصائص البيان عن الصديق في
سياق تزكية النفس وسموها

وردت ثلاثة مواضع في هذا السياق :في سورة الليل والزمر والنور في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢١ ﴾ (سورة الليل: ١٧-٢١) وقوله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الزمر: ٣٣-٣٥) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (سورة النور:٢٢)

وجميع هذه المواضع يجمعها سياق واحد: سياق التقابل بين هبوط النفس وسموّها وتفرده – رضي الله عنه– فيها بسمو النفس ففي موضع سورة الليل كان التقابل بين الأشقى، الذي كذب وتولى " وبين " الأتقى " الذي يؤتي ماله يتزكى – وما لأحد عنده من نعمة تجزى – إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" وفي موضع سورة الزمر بين الذي كذب على الله وكذّب بالصدق: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الزمر: ٣٢) وبين الذي صدق بالحق: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر: ٣٣-٣٤) وفي موضع النور جاء التقابل بين الذين يتخلقون بما يؤذي المجتمع من رمي المحصنات ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩) وبين أولي الفضل الذين يرتقون بالمجتمع ويحسنون له حتى في وقت الأذى وهو ما تفرد به الصديق –

رضي الله عنه: " وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُور رَّحِيمٌ " (النور: ٢٠)

فقد تقابل فيها سموُّ وتزكية نفس أبي بكر الصدّيق في مقابل هبوط أنفس سواد غيره، وعبَّر النظم عن تفرده في هذا على وجهين متقابلين أيضا هما: التحلي بالأخلاق الحسنة التي تفرد بها عن غيره كما في موضعي سورة الليل وسورة الزمر، والتخلي عما لا يليق بسموّ نفسه وكرمه في سورة النور.

وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

في موضع سورة الليل وقدمت الدراسة الحديث في تركيبه؛ لأنَّه الأرقى في بيان التحلي بهذا السموِّ ويليه في الرقي موضع سورة الزمر، كما أنَّه الأسبق نزولا وتتجلى الخصائص التركيبية والتصويرية المبينة لتزكية نفس الصديق –رضي الله عنه– وسموّها في الآتي:

أولا: الكمال المطلق في التعريف بـ(ال) قال تعالى: " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى "(الليل: ١٧) ففي هذا التعريف كمال في الوصف[١] يتناسب مع أفعل التفضيل وإطلاقه عن كل قيد وهذا خاص بصفات أبي بكر وهذه ملاحظة عامة أسلوبية في خصائص الصديق– رضي الله عنه – كما "أنه جعل مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له"[٢]

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨م:٤٨.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٠٧ هـ: ٤/ ٧٦٣.

وفي تعريف الطرفين كمال – أيضا –حيث وردت فاصلة موضع سورة الزمر الذي أجمع فيه العلماء أن المقصود بـ " وصدق به " هو سيدنا أبو بكر الصديق(١)، أتت الفاصلة بـ: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٣)، "فجملة ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ خبر عن الاسم الموصول، وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز(٢)، وضمير الفصل في قوله: "هُمُ الْمُتَّقُونَ" يفيد قصر جنس المتقين على ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر:٣٣) لأنه لا متقٍ يومئذ غير الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه الصدّيق رضي الله عنه" (٣)

ولا يخفى ما في جمعه مع سيد المرسلين باسم إشارة واحد للجمع " أولئك " من بيان علوّ شأنه وزكى نفسه فخوطب بما خوطب به سيد المرسلين وجمعا باسم إشارة واحد وبضمير واحد " هم " ووصفوا بوصف واحد " المتقون " وجميع ذلك بصيغة الجمع؛ تعظيما لشأنهما ورفعة لهما.

ثانيا: البناء على حذف الموصوف حيث بني النظم على الاكتفاء بالصفة دون الموصوف لملاحظة أمرين:

أ/ إما للدلالة على أن هذه الصفات لا تنطبق إلا عليه –رضي الله عنه– فمن ثم إذا أطلقت ولم تقيد بموصوف معين أو بذات معينه لا تنصرف إلا إلى الصدّيق –رضي الله عنه– لشهرته بها ومعرفتها عنه. (٤)

(١) ينظر: العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: ٦٤/١ وسيرد تفصيل الأقوال في حاشية موضع تحليل الشاهد.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٩.

(٣) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م: ٢٤ / ٨٧.

(٤) ينظر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: سعد الدين مسعود التفتازاني، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م: ٤٨٨، ٤٩١.

ب/ جعله أنموذجا إنسانيا يتردد صداه في الزمان والمكان إلى يوم أن يبعث الناس، حتى يكون قدوة لكل نفس إنسانية تريد أن تسمو بصفاتها حتى تصل إلى أعلى مراتبها، ومن ثم بنيت على الصفات دون الذوات حتى لا يتوهم أنَّه في ذات معينة يقصر عن أن يقتدي بها أحد من الناس.

ثالثا: البناء على الترقي في الانتقال من الصفات" ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾، ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ "(الليل:١٧-١٨) قلت أنَّ (أل) هنا للكمال في الوصف وقد تكون للعلم الذهني بأنَّ هذا عند كل مخاطب ابتداء من نزول الآية، كما أنَّ هذه الآية معلوم أنها في أبي بكر – رضي الله عنه– فهو الذي كان ينفق ماله ليعتق المستضعفين حتى لا يستمر المشركين في تعذيبهم، وهو الذي كان ينفق ماله لنصرة الإسلام والرسول– صلى الله عليه وسلم– وكل ما يتصل به، وهو – رضي الله عنه – الذي كانت هذه الصفات معلومة عنه عند المسلمين ؛ ولذلك بينت على الفصل في أولها " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى "﴾ (الليل:١٧-١٨) في حين بنيت في آخرها على الوصل " وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾" (الليل:١٩) وذلك ؛لأن النظم أراد تعيين هذه الصفات لموصوف واحد فأتى بها على الفصل ؛حيث يدل الفصل على أنها سلسلة متتابعة لموصوف واحد وقد تجتمع في نفس الوقت، ولما أراد الترقي في الصفة أتى بها على العطف(١).

<u>رابعا: التعريف بالموصولية، قال تعالى: "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى "﴾</u> في موضع سورة الليل وقال في موضع سورة الزمر: " وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾" (الزمر:٣٣) وجملة {وَصَدَّقَ بِهِ} صلة لموصول محذوف تقديره: والذي صدق به، لأن المصدق غير الذي جاء بالصدق، والقرينة ظاهرة لأنَّ الذي صدق غير الذي جاء

بالصدق فالعطف عطف جملة كاملة وليس عطف جملة صلة"(١) ولا يكون التعريف بالذي سواء ذكر أو حذف وقدر إلا اذا كان المقصود معلوم للمخاطبين(٢) هذا يتساوق مع ما تقدم من (ال) هذه تكون للعهد الذي "ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ" (الليل:١٨) وكيف أنه لم يقل " الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" بدون الذي، مع مراعاه هذ التجدد الموجود في صلة الموصول راعى ثباته -رضي الله عنه- في هذا حيث لم يتردد في لحظة واحدة من لحظاته في أن " الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى "، ووصف "الأَتْقَى" بصلة "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" للإيذان بأن للصلة تسببا في الحكم... وجملة "يَتَزَكَّى" حال من ضمير "يُؤْتِي"، وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله بقصد النفع والزيادة من الثواب تعريضا بالمشركين اللذين يؤتون المال للفخر والرياء والمفسد والفجور"(٣).

ويتساوق معه التعريف به وبنبينا – صلى الله عليه وسلم – باسم الإشارة " أولئك " وبضمير الفصل " هم " وبتعريف " المتقون " بأل التي للعهد في موضع سورة الزمر؛ حيث لم يعهد التقوى في ذلك الحين إلا من نبينا – عليه الصلاة والسلام – وصاحبه الصديق.

خامسا: البناء على المضارع في موضع سورة الليل: "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" (الليل:١٨) وبالمضي في موضع سورة الزمر " وَصَدَّقَ بِهِ " فانظر كيف إن

(١) ينظر الكشاف: ١/ ٣٤٣ في كلامه في قوله تعالى: "الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار"

(٢) التحرير والتنوير: ٣٤٥/٢٨.

(٣) بنظر الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٢.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٤٥/٣٠

النظم قد بني على هذا السمو الخلقي " يَتَزَكَّى " في موضع سورة الليل ولم يقل تزكي بالماضي، فهنا نلاحظ أمرين:

الأول: التجدد في التزكية وهذا التجدد فيه الاستمرار التجددي [١]، والاستمرار التجددي في الفعل المضارع يدل على انتقاله من مرتبة إلى مرتبة أعلى في تطهير نفسه وتزكيتها إلى مالا نهاية، حتى آخر نفس من أنفاسه كان يتزكى ويتطهر من كل دنيس. حتى لما قالت له عائشة رضي الله عنها في آخر مرضه: "وأبيض يستسقى الغمام بوجهه...قال لها:"ذاك رسول الله"[٢]؛ هذا تزكية للنفس؛ لأنه حين مدح بما مدح به رسول الله- صلى الله عليه وسلم - طهر نفسه من أن يأذن بأن يمدح بما اختص به رسول الله – صلى الله عليه وسلم - حيث قيل البيت للرسول ورأى أنه لا يقال لغيره -صلى الله عليه وسلم - وهذه دلالة الفعل المضارع، ومن ثم تتساوق دلالة الفعل المضارع هنا مع الاطلاق عن الوصف وعن أي قيد وعن أي زمن وعن أي حال كان يتزكى فيه، للدلالة على أنه لم يترك زمنا ولا حالا ولم يترك صفة، ولم يترك فعلا فيه يتزكى ويتطهر ويعلو ويسمو به إلا طرقه -رضي الله عنه- ومن ثم كان سيدنا عمر - رضي الله عنه- يقول:" والله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني " [٣] والأحاديث والسير في هذا كثيرة جدا وكيف أنه لم يسابقه في

(١) ينظر دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ط٣، لمحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م: ٤٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي, ط١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دمشق، ١٤١٨ - ١٩٩٧م: ١١/ ٢٦١.

(٣) صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي ط١، المكتب الإسلامي- بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠م: باب الجهر بالقراءة في صلاة الليل: ٢/ ١٨٦.

الفضل أحد أبدا ولهذا كان يقبل منه رسول -الله صلى الله عليه وسلم- مالم يقبله من أحد من الناس، وهذا أمر مشهور فلم يقبل -صلى الله عليه وسلم- أن ينفق أحد ماله كله في سبيل الله الا من أبي بكر- رضي الله عنه- وقصتها مشهورة في غزوة العسرة[1] لأنه يعلم أن قلبه لا يلتف إلى ماله بعد أدائه أبدا بخلاف غيره فقد يكون منه ذلك.

ومن ثم كان فضله -رضي الله عنه- في هذه الصفة حيث كان غنيا كما أنَّه لم يتعرض لأذى قريش، فمن هذا الوجه كان أنقى قلبا وأعلاهم تزكية لنفسه وتطهيرا لها، ومن ثم كان هذا البناء التركيبي الخاص به -رضي الله عنه- ولم يأت لأحد غيره، وقد نفى القرآن الكريم كل الأعراض التي قد تظن أن من أجلها أنفق أبو بكر سواء من قرابة أو مجاملة أو سواها من أسباب الدنيا .

الآخر: تخير النظم الحكيم مادة يتزكى: وفيها دلالة على تكلف الزكا وأصل زكا: الزاي والكاف والحرف المعتلّ يدل على نَمَاءٍ وزيادة، ويقال الطَّهارة زكاة المال، والأصل في ذلك كلِّه راجع إلى هذين المعنيين، وهما النَّماء والطهارة، وهو ممدود النَّماء والرَّيْعُ بالخير وكلُّ شيء يزداد ويَنْمي فهو يَزْكو، وكل معاني الزكا تدور على الخير والصلاح [2]، ويعضد هذه الدلالة إضافة المال لضميره -رضي الله عنه حيث إن فيه دلالتين: دلالة ملكيته المطلقة لهذا المال فهو له لا يشاركه أحد فيه ومن ثم فهو المتصرف فيه والمالك له ومع حب النفس الإنسانية لما تملكه وتحافظ عليه ترى أبا بكر- رضي الله عنه - يتزكى به لله ولا يسبقه حب النفس للمال البتة، ودلالة أخرى على عموم المال واستغراقه فهو يتزكى بماله كله وليس بضعه ويعطيه

(١) ينظر معالم السنن: ٢/ ٧٨.

(٢) ينظر معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ط١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: ١٨/٣، ولسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، دار صادر – بيروت، ١٩٨٨م: ١٤/ ٣٥٨.

بسماحة نفس بلين ورضى حيث قدم فعل الإيتاء على يتزكى والإيتاء فيه دلالة العطاء ورضى النفس ولينها؛ ففي الإتيان معنى مجيء الشيء بطواعية قال صاحب معجم مقاييس اللغة: " الهمزة والتاء والواو والألف والياء يدلُّ على مجيء الشيء وإصحابِه وطاعَتِه...، والإيتاء الإعطاء" [1] وقولك أتى فلان يقتضي مجيئه بشيء [2] وهذا مثبت عنه –رضي الله عنه– في السير كما تقدم.

في حين أتى النظم بالمضي في موضع سورة الزمر:" وَصَدَّقَ بِهِ "فالتصديق هنا لا يقتضي تجددا، بل تماما وانقضاء وثباتا وهذا ما كان عليه حال سيدنا أبي بكر الصديق –رضي الله عنه وأرضاه – فقد صدق بالحق وبمن جاء به جملة واحدة ولم يتدرج فما عرف عن أبي بكر تصديقه لنبي الأمة –صلى الله عليه وسلم – دون تردد أو سؤال أو طلب دليل، وهذا أدلُّ على سموّ نفسه – رضي الله عنه – وعلوّ يقينه، وهذا لم يكن إلا منه ولذا تفرد بهذا النظم من دون سواه.

سادسا: القصر بما وإلا، قال تعالى:ُّوَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ً (الليل: ١٩-٢٠) للدلالة على استقلال هذه الخاصية كونه فعل هذا خاص لوجه الله على هذا الوجه من القصر ومن ثم جاء بما وإلا؛ لأن هذا غير معتاد بين الناس فالقصر بها لا يأتي إلا للأمر ينكره المخاطب أو يشك فيه[3]، فالمعتاد بين الناس أن تقع على سبيل المجاملة، أو مراعاة للقرابة، أو موقف أو مراعاة أمر آخر لكن الله نفى عنه كل هذه الوجوه بأسلوب القصر، وكيف إنه عندما أراد أي نعمة أخرى بناها على استغراق النكرة بالنفي " من نعمة " ليدل على نفي ابتداء ما يقال أنها نعمة أو يد تجزي؛ لأنه –رضي الله عنه– كان صاحب يد عليا

(١) معجم مقاييس اللغة: ٥١/١

(٢) الفروق اللغوية: ١٥٢.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز: ١٩١.

في كل شي: "إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى "، وعند النظر إلى:" الآية الواردة في حق علي –رضي الله عنه – " إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً "(الإنسان:٩-١٠) والآية الواردة في حق أبي بكر ُإِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ً (الليل: ٢٠) دلت الآيتان على أن كل واحد منهما إنما فعل ما فعل لوجه الله إلا أن آية علي تدل على أنه فعل ما فعل لوجه الله وللخوف من يوم القيامة على ما قال: ُ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ً وأما آية أبي بكر فإنها دلت على أنه فعل ما فعل لمحض وجه الله من غير أن يشوبه طمع فيما يرجع إلى رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب فكان مقام أبي بكر أعلى وأجل"[١]

ولا يخفى تخير النظم للمصدرية " ابتغاء " على حين أن ما تقدمها كان بالفعل " يؤتي، يتزكى " ولكن حين تحدث النظم عن الغاية والقصد أتى بالاسمية – المصدرية – الدالة على ثبات هذه الوجهة [٢]، وقيده بـ:" وجه ربه الأعلى " وهذ أرقى وأسمى الغايات، فالهمة عالية والنفس زكية فلم ترد إلا وجه ربها الأعلى، وللمتأمل أن يتأمل دقة هذا النظم.

ثم ختم النظم الحكيم في موضع سورة الليل بقوله: " وَلَسَوْفَ يَرْضَى " التي تجعل نصب أعيننا ماورد في شأن النبي– صلى الله عليه وسلم– في السورة التي تليها:" وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ " (الضحى:٥) في شأن نبينا الكريم وصاحبه الصدّيق –رضي الله عنه– ويتجلى القرب الشديد من الإنعام على رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم– والإنعام على صاحبه سيدنا أبي بكر في موضع سورة الليل

(١) مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م ٣١/ ١٨٥.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز: ٥٢، والإيضاح في علوم البلاغة: ٨٧.

وكيف تلاقى الأسلوبان في هذا التأكيد والوعد والإطلاق في الرضى وكيف أن الرضى شمل كل شي. ويظل لنبينا الكريم – عليه الصلاة والسلام – الحظوة في ترقي النظم معه؛ فهو خاتم النبيين وأعلى البشرية، فالنظم وإن تقارب إلا أن المتأمل يلحظ تقيد الرضى بعطاء الرب المنعم –سبحانه – بتخير اسم الربوبية" ربك " الدالة على عظيم الإنعام وبأسلوب الخطاب الذي فيه تكريم لا يخفى بتوجيه الخطاب الإلهي مباشرة للنبي الكريم – عليه الصلاة والسلام – ولا عطاء أعلى من العطاء الرباني. في حين توقف النظم مع سيدنا أبي بكر– رضي الله عنه– على الرضا من دون قيد، وورد النظم بالغيبة في حين ورد مع النبي الكريم – عليه الصلاة والسلام بالخطاب ولا يحفى ما بينهما من فرق.

في حين أتى الجزاء في موضع الزمر بحصولهم ما يشتهون:" وجملة ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الزمر: ٣٤) مستأنفة استئنافا بيانيا لأنَّهم لما قصر عليهم جنس المتقين كان ذلك مشعرا بمزية عظيمة فكان يقتضي أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزية فبين له أن لهم ما يشاءون عند الله. و{مَا يَشَاءُونَ} هو ما يريدون ويتمنون، أي يعطيهم الله ما يطلبون في الجنة، ومعنى {عِنْدَ رَبِّهِمْ} أن الله ادخر لهم ما يبتغونه وهذا من صيغ الالتزام ووعد الإيجاب، يقال: لك عندي كذا أي ألتزم لك بكذا، ثم يجوز أن الله يلهمهم أن يشاءوا ما لا يتجاوز قدر ما عين الله من الدرجات في الجنة فإن أهل الجنة متفاوتون في الدرجات، ويجوز أن {مَا يَشَاءُونَ} مما يقع تحت أنظارهم في قصور ويحجب الله عنهم ما فوق ذلك بحيث لا يسألون ما هو من عطاء أمثالهم وهو عظيم ويقلع الله من نفوسهم ما ليس من حظوظهم، ويجوز أن {مَا يَشَاءُونَ} كناية عن سعة ما يعطونه كما ورد في الحديث: "ما لا عين رأت ولا أذن سمعن ولا خطر على قلب بشر "وهذا كما يقول من أسديت إليه بعمل عظيم: لكَ عليَّ حكمك أو لك عندي ما تسأل، وأنت تريد ما هو غاية الإحسان لأمثاله، وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف {رَبِّهِمْ} في قوله: {عِنْدَ رَبِّهِمْ} إيماء إلى

أنه يعطيهم عطاء الربوبية والإيثار بالخير، ثم نوه بهذا الوعد بقوله: {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} والمشار إليه هو ما يشاءون لما تضمنه من أنه جزاء لهم على التصديق. وأشير إليه باسم الإشارة لتضمنه تعظيما لشأن المشار إليه، والمراد بالمحسنين أولئك الموصوفون بأنهم المتقون، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنهم محسنون، والإحسان: هو كمال التقوى لأنه فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: "أن تعبد الله كأنك تراه" وأي إحسان وأي تقوى أعظم من نبذ ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحمل مخالفة الأهل وعداوتهم وأذاهم. (١)

ويلحظ المتأمل علوَّ الجزاء في موضع سورة الليل –فهو أعلى في بيان سموّ سيدنا أبي بكر –عن موضع سورة الزمر حيث جعل الجزاء حصول الرضى المطلق الذي يتولاه الله في حين جعل الجزاء في الزمر بمشيئتهم وما يختاره الرب لا شك خير وأبقى.

وللبيان عن الصدّيق في سياق مقابلة الأذى في الذكر الحكيم وبيان سمو نفسه عن طريق التخلي عما لا يليق بنفسه الكريمة خصائص في التعبير لم تأت إلا معه، ولا يخفى ما يكون للنفس البشرية من ضعف وتغير طباع في وقت الشدة ولكن ذلك لم يكن في صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فالصدّيق كان من أعلى الناس نفسا وخلقا بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وقد نزل قوله تعالى:" وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (سورة النور:٢٢) . في شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصدّيق –رضى الله عنهما– وكان فقيرا من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط

(١) التحرير والتنوير: ٨٥/٢٤.

منه ما فرط آلى ألا ينفق عليه، وكفى به داعيا إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء. ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها على أبى بكر، فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبدا"(١)

ويمكن إجمال الخصائص التركيبية التي بينت تفرد أبي بكر في النظم الحكيم بسمو يتخلى فيه عما لا يليق بنفسه في الآتي:

أولا: التنوع بين خطاب الغيبة والخطاب في سياقي الأمر بالتخلي والحض ؛ فحين أقسم أبو بكر الصديق –رضي الله عنه – على قطع نفقته على مسطح حين كان ما كان منه في حادثة الإفك – وليس هذا خلقه ولا طبع نفسه – ورد الأمر بالتخلي على ذلك بالغيبة وفي هذا تعريض بالعتاب من دون المواجهة به، في حين التفت النظم الحكيم إلى الخطاب في حض أبي بكر الصدِّيق إلى العمل بما يوجب محبة الله –عزَّ وجلَّ– له: "أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ولذة الخطاب تنسي ولا شك العتاب، فكان رده رضي الله عنه: "بلى أحب أن يغفر الله لي"(٢) وهذا سمته –رضي الله عنه – حتى في لحظات الغضب والأذى .

ثانيا: العدول في خطابه –رضي الله عنه – عن الإفراد للجمع؛ فهو – رضي الله عنه– أمة قائمة فورد النظم بقوله تعالى: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ"(النور:٢٢) بالجمع والمتفق عليه أن المقصود بها أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه، وما ذلك إلا إعلاء لشأنه حتى في سياق العتب. ولم يرد الخطاب في الذكر الحكيم لأحد من الصحابة بصيغة الجمع سوى له –رضي الله– عنه وأرضاه " واعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي: ح ٢٦٦١ / ٣/ ٢٣١.
(٢) نفسه.

علوَّ شأنه في الدين أحدها أنَّه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع، والواحد إذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ (الحجر: ٩) "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" (الكوثر:١) فانظر إلى الشخص الذي كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علوَّ شأنها وثانيها وصفه بأنه صاحب الفضل على الإطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الإفضال وذلك يدل على أنه رضي الله عنه كما كان فاضلاً على الإطلاق كان مفضلاً على الإطلاق"[١]

ثالثا: الترقي في صفات الفضل بالابتداء بالعفو والتثنية بالصفح الذي يقتضي نسيان ما كان من المخطئ كما" أنه سبحانه قال لمحمد – صلى الله عليه وسلم – "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ" (المائدة:١٣) وقال في حق أبي بكر" وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ" (النور:٢٢) فمن هذا الوجه يدل على أن أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في جميع الأخلاق حتى في العفو والصفح" [٢] وهذا تفرد لسيدنا أبي بكر الصدِّيق وتزكية له – رضي الله عنه – وتساوق معه الترقي في عفو الله –عز وجل –عنه بالبدء بالمغفرة ثم الرحمة: "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ١٦٣.

(٢) نفسه.

المبحث الثاني:
خصائص البيان عن الصديق
في سياق النفرة للنصرة

ورد في هذا السياق موضعان في سورتي التوبة والفتح في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠) وقوله: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيما ١٦ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمً (الفتح:١٧).

ويجمع هذين الموضعين سياقا الحال والمقال، حيث يجمعهما حال تفرّد أبي بكر الصدِّيق – رضي الله عنه – بالنصرة وحده في وقت لم يكن فيه غيره [1] كما يبينه السياق المقالي أيضا في كلا الموضعين حيث تقدم فيهما التخاذل عن نصرة النبي –صلى الله عليه وسلم– وتفرّده وحده – رضي الله عنه –بالقيام للنصرة حيث

(١) يدل على هذا ما ورد في الأحاديث الصحيحة والسير حيث كان أول من نصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته وكان وحده من هاجر معه ودليل ذلك موضع سورة التوبة نصا، وما نصت عليه الأحاديث الصحيحة والسيرة الذي ليس هنا موطن ذكرها، وبعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان هو وحده أول من عزم الأمر على قتال المرتدين في حين كان للمسلمين آراء أخر في محادثتهم ومراجعته قبل قتالهم ومن ذلك قوله رضي الله عنه: "والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة، قيل: ومع من تقاتلهم؟ قال: "وحدي، حتى تنفرد سالفتي" وكلمة وحدي تدل على تفرده – رضي الله عنه– بالعزم على القتال قبل بقية الصحابة – رضوان الله عليهم – ينظر: العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: ١/٦٤.

تقدم في السياق القبلي في سورة التوبة قوله تعالى:" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيما وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ "(التوبة:٣٨-٣٩) ووليها مباشرة قوله تعالى:"إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ...(التوبة:٤٠) الآية وهذا صريح مقال النظم الحكيم بتفرد الصديق –رضي الله عنه– بالنصرة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم – قال الرازي:" دلت هذه الآية على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه من وجوه: أنه –عليه الصلاة والسلام– لما ذهب إلى الغار لأجل أنه كان يخاف الكفار من أن يقدموا على قتله فلولا أنه –عليه الصلاة والسلام– كان قاطعاً على باطن أبي بكر بأنه من المؤمنين المحققين الصادقين الصديقين وإلا لما أصحبه نفسه في ذلك الموضع لأنه لو جوز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أن يدل أعداءه عليه، وأيضاً لخافه من أن يقدم على قتله فلما استخلصه لنفسه في تلك الحالة دل على أنه –عليه الصلاة والسلام– كان قاطعاً بأن باطنه على وفق ظاهره... وذلك يوجب الفضل العظيم ,وأنه تعالى سماه ثَانِيَ اثْنَيْنِ فجعل ثاني محمد –عليه الصلاة والسلام– حال كونهما في الغار والعلماء أثبتوا أنه رضي الله عنه كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية فإنه – صلى الله عليه وسلم – لما أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر ثم ذهب وعرض الإسلام على طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من أجلة الصحابة رضي الله تعالى عنهم والكل آمنوا على يديه ثم إنه جاء بهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –بعد أيام قلائل فكان هو رضي الله عنه ثَانِيَ اثْنَيْنِ في الدعوة إلى الله وأيضاً كلما وقف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة كان أبو بكر رضي الله عنه يقف في خدمته ولا يفارقه فكان ثاني اثنين في

مجلسه ولما مرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قام مقامه في إمامة الناس في الصلاة فكان ثاني اثنين ولما توفي دفن بجنبه فكان ثاني اثنين"(١)، ففي هذه الآية من التنويه بمقدار الصديق وتقدمه وسابقته في الإسلام وعلو منصبه وفخامة أمره ما لا يعلمه إلا الذي أعطاه إياه "(٢)

وكذلك بيَّن السياق المقالي القبلي لموضع سورة الفتح هذا التفرد في وقت التخاذل حيث كان اختص النظم فيه بالمخلفين والتخاذل عن النصرة" سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ " (الفتح: ١١)،" سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ (الفتح:١٥) ثم ورد بعدها مباشرة قوله تعالى: " قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " (الفتح: ١٦) إشارة صريحة بأن هناك من سينصر الحق ولو بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم- وهو امتداد نصرة الصديق لصاحبه ولدين الإسلام حيث أجمع العلماء بأن الآية وردت إشارة إلى إمامة سيدنا أبي بكر وأن القتال الذي سيدعون إليه هو ما كان في حرب الردة قال صاحب الكشاف مرجحا ذلك: " وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه-؛ لأنَّ مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبى حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب، والمجوس تقبل منهم الجزية، وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم

(١) مفاتيح الغيب: ١٦/٥٠.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط٢، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي٣ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م: ٣/ ٣١٩.

والعرب. وهذا دليل على إمامة أبى بكر الصديق -رضى الله عنه -فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن بعد وفاته"(١)

ويمكن إجمال الخصائص التركيبة التي عبرت عن الصديق بتفرد في هذا السياق على النحو الآتي:

أولا: جعل حاله متعلقا بأبي بكر:" ثَانِيَ اثْنَيْنِ "، " أي ثانيا من اثنين، والاثنان هما النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر: بتواتر الخبر، وإجماع المسلمين كلهم. (٢) ولكون الثاني معلوما للسامعين كلهم لم يحتج إلى ذكره، وأيضا لأن المقصود تعظيم هذا النصر مع قلة العدد" (٣) حيث جعل حال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين أخرجه قومه ثانيا مع أبي بكر الصديق وفي هذا جمع محض لهما في الحال وفي هذا رفعة وعلو لشأن سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه-.

وفي موضع سورة الفتح يقول تعالى في شأن المخلفين: "فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا" (الفتح:١٦) فجعل الحال امتدادا لأحكام الله التي كانت للنبي - صلى الله عليه وسلم- حيث رتَّب الأجر الحسن على طاعة سيدنا أبي بكر ورتب العذاب الأليم على التولي عن نصرته، وهذا لم يكن من قبل إلا للرسول – صلى الله عليه وسلم –، يؤكده القيد في الآية" من قبل " والمقصود بمن قبل ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا متساوق مع قوله تعالى بعد هذه الآية في شأن طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم –" وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، ٤/ ٣٣٨ وينظر مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٧٦، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ١٤٤.وغيرهم.

(٢) ينظر صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي:ح٧٢١٧، ٩/ ١٠١.

(٣) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٠٠.

يُعَذِّبْـهُ عَـذَابًا أَلِيمـا ﴾ (الفتح:١٧) ومـع سياق سورةِ الفتح الذي يدور حول العطاء الرباني الذي كان للرسول –صلى الله عليه وسلم – وكونـه يمتد لأبي بكر هذا هو وجه التفرد في النظم الحكيم .

ثانيا: تخير التعبير عن ملازمة الصديق لـه بالصحبة" لِصَاحِبِهِ "وإضافتها لضميره – صلى الله عليه وسلم –فالصحبة تفيد انتقاع أحد الصاحبين بالآخر ولهذا يستعمل في الآدميين خاصة [١] وهذه منزلة عالية لم تذكر لغير أبي بكر الصدِّيق، يعضدها إضافة هذه الصحبة لضمير سيد الأنام فهو المعين وحده في حينه للنبي– صلى الله عليه وسلم– كما أن في إضافته لضمير سيد المرسلين تفرد آخر وتشريف له بهذه الصحبة فشرفه بشرف من أضيف إليه [٢].

ثالثا: التعبير عنـه وعن سيد الأنـام – صلى الله عليه وسلم بضمير واحد: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (التوبة:٤٠) فالسكينة والتأييد كانت لكليهما، وعبر عنهما بضمير الواحد وفي هذا علوّ شأن الصدِّيق أن لم يفصل بينه وبين صاحبه بعطف أو سواه، بل جعل الضمير واحدا.

رابعا: الإطلاق عن القيد: حيث أطلق الطاعة وفي مقابلها التولي في موضع سور الفتح " تطيعوا / تتولوا " وهذا الإطلاق للطاعة فيه علوٌّ لشأن سيدنا أبي بكر – رضي الله عنه– حيث جعل الطاعة مطلقة عامة فليست فقط في أمر القتال وكذلك التولي أطلقه لكل أمر وليس التولي فقط عن القتال. وهذا متساوق مع إطلاق الطاعة والتولي في شأن الرسول –صلى الله وسلم – حيث قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (الفتح:١٧) ويعضد ذلك نص البقاعي في تفسير هذه الآية حيث

(١) الفروق اللغوية:٣٠٨.

(٢) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٩.

قال:" (فَإِن تُطِيعُواْ) أي توقعوا الطاعة للداعي إلى ذلك، وهو أبو بكر – رضي الله عنه– "يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ" أي الذي له الإحاطة والقدرة على الإعطاء والمنع، لا راد لأمره " أَجۡرًا حَسَنٗا" دنيا وأخرى، جعل الله طاعة أبي بكر –رضي الله عنه– في هذا الأمر بالخصوص كطاعة رسول الله –صلى الله عليه وسلم –الذي طاعته طاعة الله، جزاء له على خصوصه في مزيد تسليمه لما فعله النبي –صلى الله عليه وسلم – من الصلح وثباته بما أجاب به عمر –رضي الله عنهما– بمثل جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – من غير أن يكون حاضراً له كما هو معلوم من السيرة "[1]

(١) نظم الدرر: ٧/٢٠٠.

الـخاتـمـة

وبعد انتهاء الدراسة خلصت إلى خصائص كلية من خلال المواضع الخمسة التي تفرد بها سيدنا أبو بكر في نظم القرآن الكريم المعجز تبين مكانته وعلو قدره ويمكن إجمال هذه الخصائص في الآتي:

أولا: اطراد بناء الصفات على حذف الموصوف، وهذا أدل على علوّ منزلته وتفرده.

ثانيا: اطراد أساليب العلم بالمخاطب سواء في التعريف به بالموصولية: "الذي يؤتي ماله يتزكى "، " الذي جاء بالصدق وصدق به " حيث حذف هنا اسم الموصول وتقديره " والذي صدق به " أو بأل الدالة على العهد والكمال في الوصف " الأتقى " وكل ذلك دال على تفرد الصديق بمنزلة من السموّ لم تكن لغيره ومن ثم استلزم تفرد النظم في شأنه لذلك.

ثالثا: مخاطبته رضي الله عنه بأسلوب الجمع فإيمانه وزن إيمان الأمة وهو أمة بمفرده رضي الله عنه.

رابعا: جمعه مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بضمير واحد واسم إشارة واحد وهذا لم يكن إلا له رضي الله عنه.

خامسا: أساليب الترقي، بين ذكر إطلاق ذكر الصفة وحذف الموصوف ليتسع المعنى ويعلو، واستعمال التعريف الدال على الكمال، والتدرج في معاني السمو والنصرة.

سادسا: تصاعد المعاني كما ورد في موضع سورة الليل حيث بدأ بتجنب النار" وسيتجنبها الأتقى " وتصاعد إلى التزكية " الذي يؤتي ماله يتزكى " ثم تصاعد إلى الإخلاص " إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى " ثم اقتضى ذلك تمام الرضا" ولسوف يرضى.

سابعا: الفرائد الخاصة بالصديق الدالة على علو منزله ومن ذلك التقارب بين الوعد برضاه والوعد برضا الرسول " ولسوف يرضى " في شأنه –رضي الله عنه – و " ولسوف يعطيك ربك فترضى" في شأن نبي الأمة – عليه الصلاة والسلام – و يلاحظ ذلك التقارب سواء في الترتب أو النظم – كما تقدم بيانه في البحث– وعضد ذلك تجاور السورتان المؤكد لتقارب المرتبة، وكذلك التقارب في ترتيب الأجر على طاعته والعذاب على التخلي عنه:" فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيما"(الفتح:١٧)

تاسعا: اطراد خصوصية التقابل العام في كل مواضع وروده بين سمو النفوس وهبوطها تارة، وبين النصرة والخذلان تارة أخرى؛ بحيث يجعله الوجه المقابل والأنموذج الأمثل المضاد للمواقف الأخرى من الرسالة وهذا التقارب دالٌّ على تقارب الرتبة وأن مرتبة الصديق –رضي الله عنه – تلي الرسالة في الفضل مباشرة وهذا تفرد له عبر عنه الذكر الحكيم حيث لم يأت ذلك لغيره في القرآن مع كثرة الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم.

والله الموفق

الباحثة

المصادر والمراجع

١- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ط١، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٤٠٣هـ.

٢- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، ١٤١٢هـ.

٣- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨م.

٤- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، اط٣، لمحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة: ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٦- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ط١, المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دمشق، ١٤١٨ – ١٩٩٧م.

٧- صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي ط١، المكتب الإسلامي- بيروت، ١٣٩٠ – ١٩٧٠م.

٨- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ط١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٩٦٠م.

٩- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي، ط٢، تحقيق محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي، دار الجيل بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.

١٠- فتح الباري صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، ط١، دار الشعب - القاهرة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.

١١- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، د.ط، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي . بيروت، ١٤٠٧ هـ.

١٣- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، دار صادر - بيروت، ١٩٨٨م.

١٤- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: سعد الدين مسعود التفتازاني، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٥- معالم السنن، شرح سنن أبي داوود: أحمد بن محمد الخطابي البستي، ط٢، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

١٦- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ط١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٧- مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.

١٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط٢، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي٣ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.